الأستاذ: قوراري السعيد

المستوى: أولى ليسانس (جذع مشترك).

المادة: النص الأدبي القديم (شعر). تطبيق

المجموعة: الثانية (الأفواج: 5-6-7-8)

الدرس التطبيقي :01

تُطْرَحُ في أثناء الحديث عن المقدّمة الطّلليّة في الشّعر الجاهليّ مسألةُ البحثِ عمَّن سَنّ هذه السُّنَّةَ في الشِّعر، وصِدْقِ مَنْ قلّده من الشُّعراء؛ وفي سياق البحث عمّن سنّ هذه السُّنَّة يُحِيلُ معظم النّاس إلى قول امرئ القيسِ بنِ حُجْرٍ الكِنْديّ:

عُوجَا عَلى الطَّلل الـمُحيلِ لعلَّنا نَبْكي الدّيارَ كما بكى ابنُ حَذَامِ

ويختلفونَ في رِوايته على: (... ابن حَذَام) و (... ابن خِذَامِ) و) ابن حُمَامِ)، ويذكرونَ أنَّ امرَأَ القيس يُبَيّنُ أنَّهُ مسبوقٌ إلى الوقوفِ على الأطلال، ويتخبَّطونَ في أمرِ هذا الرَّجُلِ الّذي ذكره امرؤ القيس؛ والتحقيقُ يدلُّ على أنَّ الصّواب في رواية البيت: (... ابن حُمام(وأنَّه كانَ شاعراً أَسَنَّ مِن امرِئ القيس ولكنَّه عاصَرَه، وكان يُرافِقُه في تنقُّلِه بين أحياء العرب وبواديها، وكانَ مِمَّنْ صَحِبَهُ في رحلتِهِ إلى بلادِ الرُّوم للاستعانةِ بقيصَرَ لِرَدِّ مُلْكِهِ المفقود، واسمُه هو: امرُؤُ القيس بنُ حُمَامِ بنِ عُبَيْدَةَ الكلبيّ، وقد ضاعَ مُعْظَمُ شِعْرِه، ومِنْ أسبابِ ضَياعِهِ مُشاركَتُه لامرئِ القيس بنِ حُجْرٍ في الاسم، حتّى إنَّ أَعْرابَ كَلْبِ بْنِ وَبْرَةَ كانوا ينسبونَ إليه خمسةَ أبياتٍ مِنْ مُقدّمةِ معلَّقة ابنِ حُجْرٍ (قِفا نبكِ مِنْ ذكرى حبيبٍ ومنزلِ.(

ولكِنْ لا رَيْبَ في أنَّ الوقوفَ على الأطلالِ أقدَمُ مِنْ هذينِ الشّاعرَين كثيراً، ولا سبيلَ إلى الوقوفِ على تاريخِهِ وعلى اسمِ مَنْ بدأ بِهِ، لِضَياع الشِّعر القديمِ واندثارِهِ واستحالة الوقوفِ على أوّليّتِه الحقيقية، مثل كثيرٍ من أوائلِ الأمور.

****

تحدث عن (مَنْشَأِ شعر الوقوف على الأطلال): ما الذي ألجأ الشعراء إلى الحديث عن الدّيار في مطالع قصائدهم؟

ج: مَنْشَأُ شعر الوقوف على الأطلال :

المرادُ بذلك هو الكشفُ عمَّا أَلْجأَ الشّعراءَ إلى الوقوف على الدّيار والحديث عنها في مطالع قصائدهم، إذ يقودُ البحث والتأمُّل إلى ثلاثة أسبابٍ رئيسيّة وراءَ ذلك:

الأسباب التي دعت الشعراء الجاهليين إلى الوقوف على آثار الديار والحديث عنها في مطالع قصائدهم.

السبب الأول: عاطفيّ:

وهو: عاطفة الحبّ وتعلّق المحبّ بمحبوبته وما له علاقةٌ به؛ فإنّ الحبَّ من أعمق العواطف الإنسانية، لم تختلف مكانتها في نفس الإنسان السّويّ منذ أقدم العصور، ولهذا انتشر شِعْرُ الحُبّ في جميع آداب العالَم على اختلاف اللّغاتِ والأجناس؛ والمحبوب في نظر المحبّ في المكانة العالية الّتي لا تدانيها مكانة، ولهذا تكون الأشياء الّتي تخصُّه ذاتَ قيمة عاليةٍ في نفسِ المحبّ، ويكون ذكرُها في الحقيقة ذكراً للمحبوبِ وتعلّقاً به وبما كانَ لهما مِنْ أيّامٍ وأحلامٍ؛ ولذلك يُعَدُّ ذكر ديار الأحبّة طَرَفاً مِنَ النّسيب.

والمكانُ هُوَ الظَّرْفُ الّذي احتوى كلَّ ما كانَ بين المحبّ ومحبوبه، ولذلكَ نجد ديار الأحبّة أبرزَ ما يتعلق به الشّاعر المحبّ وأشدّها تأثيراً في نفسِه، وكذلك حال الشّاعر الّذي يمرّ بديار قومه بعد ارتحالهم عنها؛ وهذا يعني أنَّ هنالكَ سبباً عاطفيّاً صادقاً وراءَ هذا الوقوف على آثار الدّيار.

السّببُ الثّاني: بيئيٌّ:

وهو: طبيعة حياة أهلِ البادية من العرب، فإنَّ البدوَ محتاجون إلى الارتحال والانتجاع دوماً، فإذا كانت أيّام الرّبيع انتشروا في بواديهم لكثرة الماءِ والكَلَأ، حتّى إذا كانت أيّام القيظ وشحّت المياه وقلّ الكلأ تجمَّعت أحياءٌ عدّة على ماءٍ واحدٍ،

ويُسَمَّى هؤلاءِ بـ(الخَلِيط) وعندئذ تنشأ بينهم علاقات إنسانيّة مختلفة، منها ما يكون من علائق الحبّ، ثمّ تعود أيّام الرّبيع فيفترقون، وإلى جانب هذا ما يكون بين أبناءِ القبيلةِ الواحدة من علائقَ في حِلِّها وتَرْحالها؛ فإذا ما مرَّ الشّاعر منهم في سفره بتلكَ الديار ورأى خلوَّها مِنْ أهلِها، واستقرارَ الوحشِ فيها بعدَ الأنيسِ، تذكَّرَ ما مضى وثارت في نفسه عواطفُ لعلَّ أقواها عاطفة الحبِّ، وعندئذ يحنّ إلى تلك الأيّام، ويأسى على خلاء الدّيار، وقد تتمكّن منه عاطفته ولا يجدُ ما يفرّج به عَنْ نفسِهِ سوى البكاء، أو الارتحال على ظهر مطِيّته ليتسلّى عن همومه، فيكون ذلك وسيلةً للانتقال إلى الحديث عنِ الرّحلة. وهذا يعني أنَّ نمط الحياة البَدَويّة الدّاعية إلى التّنقّل والارتحال وترك الدّيار مرّةً بعدَ مرَّةٍ سببٌ بيئيٌّ كانَ وراءِ الوقوفِ على آثار الديار؛ وهذا ما يُفَسِّرُ بقاءَ هذه السّنّة لدى شعراء البادية إلى يوم النّاسِ هذا.

السَّبَبُ الثّالث: فَنّيٌّ نَفْسيّ:

وهو: أنَّ ذِكْرَ الأحبَّة محفِّزٌ قويّ يُعِينُ على فَتْحِ بابِ الشِّعْرِ، فَقَدْ سُئِلَ ذو الرُّمّةِ - وهو شاعِرٌ أمويّ" : -كيف تعمل إذا انقفَلَ دونَكَ الشّعر ؟ فقال: كيفَ يَنْقَفِلُ الشّعر دوني وعندي مفاتيحُه؟ قيل له: وعنه سألناكَ، مَا هو؟ قال: الخلوةُ بذكر الأحباب"، ولا ريبَ أنَّ ذكرَ آثار الدّيار ذكرٌ للأحبَّة الّذين كانوا فيها، وقد أَشار إلى ذلكَ بعضُ الشّعراء العشّاق بقوله:

أَمُرُّ على الدّيارِ ديارِ لَيْلى أُقَبِّلُ ذا الْجِدارَ وذا الْجِدارا

وما حُبُّ الدّيارِ شَـغَفْنَ قَلبي ولكنْ حبُّ مَنْ سَكَنَ الدّيارا

وهذا يعني أنَّ ذكرَ الدِّيار ومَنْ كان فيها سَبَبٌ فَنِّيٌّ نفسيٌّ استعانَ بِه الشّعراءُ لشَحْذِ القريحةِ ووُلوجِ بابِ الشّعر والتنقُّل في رياضِ أغراضِهِ ومعانيه.

قد أشار ابنُ قُتَيْبَةَ إلى هذه الأسبابِ فيما نقلَهُ عن بعضِ أَهْلِ الأَدَبِ إذ قال في كتابه الشّعر والشُّعراء)): "وسمِعْتُ بعضَ أهلِ الأدبِ يَذْكُرُ أنَّ مُقَصِّدَ القصيدِ إنَّما ابتدأَ فيها بذكرِ الدِّيارِ والدِّمَنِ والآثار، فبَكَى وشَكا، وخاطَبَ الرَّبْعَ، واستوقفَ الرَّفيقَ، لِيَجْعَلَ ذلك سبباً لِذِكْرِ أهلِها الظّاعِنينَ عنها، إذْ كان نازِلَةُ العُمُدِ في الحُلولِ

والظَّعْنِ على خِلافِ ما عليهِ نازِلَةُ المَدَرِ، لانتقالِهم عن ماءٍ إلى ماءٍ، وانتجاعِهِمُ الكَلَأَ، وتَتَبُّعِهِمْ مَساقِطَ الغَيْثِ حيثُ كان؛ ثُمَّ وَصَلَ ذلكَ بالنَّسِيبِ، فشَكا شِدَّةَ الوَجْدِ وألَمَ الفِراقِ وفَرْطَ الصَّبابةِ والشَّوْقِ، لِيُمِيلَ نَحْوَهُ القلوبَ، ويَصْرِفَ إليهِ الوُجوهَ، ولِيَسْتَدْعِيَ بهِ إصغاءَ الأَسْماعِ إليه، لأَنَّ التَّشْبِيبَ قَرِيبٌ مِنَ النُّفوس، لائِطٌ بالقلوب، لِمَا قد جَعَلَ اللهُ في تَرْكِيبِ العِبادِ مِنْ مَحَبَّةِ الغَزَلِ وإلْفِ النِّساء، فلَيْسَ يكادُ أَحَدٌ يَخْلُو مِنْ أَنْ يكونَ مُتَعَلِّقاً منه بِسَبَبٍ، وضارِباً فيهِ بِسَهْمٍ، حلالٍ أو حَرامٍ؛ فإذا عَلِمَ أنَّهُ قدِ استَوْثَقَ مِنَ الإصغاءِ إليه، والاستماع له، عَقَّبَ بإيجابِ الحُقوقِ، فرَحَلَ في شِعْرِه، وشَكا النَّصَبَ والسَّهَرَ وسُرَى اللَّيْلِ وحَرَّ الهَجِيرِ، وإنضاءَ الرَّاحِلَةِ والبَعِير؛ فإذا عَلِمَ أنَّهُ قد أَوْجَبَ على صاحِبِهِ حقَّ الرَّجاء وذِمامَةَ التَّأْمِيلِ، وقَرَّرَ عندَهُ ما نالَهُ مِنَ المَكارِهِ في المَسِيرِ، بَدَأَ في المَدِيح، فبَعَثَهُ على المُكافأَة، وهَزَّهُ للسَّماح، وفَضَّلَهُ على الأَشْباهِ، وصَغَّرَ في قَدْرِهِ الجَزِيلَ.((على أنَّ ذِكْرَ الدِّيارِ فَرْعٌ مِنْ بابِ الحنينِ إلى الأوطان، وهو في نفسِهِ مَقْصِدٌ نبيل مِنْ مقاصِدِ الشّعراء.